الاستبداد وقدسية المعارضة

بقلم: د.مصطفى حسين بطيخة

تم نشر هذا المقال على جريدة زمان الوصل الالكترونية بتاريخ 12 كانون الثاني العام 2026:

https://www.facebook.com/share/p/1Cj26HUsEj/

في مقالي على زمان الوصل بعنوان (الاستبداد والعصبيات: قصة سورية) تحدثت عن ثلاثة أنواع من الاستبدادات، الأول هو استبداد على مستوى الفرد، والثاني هو استبداد على مستوى الأمة، أما الثالث فهو استبداد عالمي. لقد استفضت في شرح هذه الاستبدادات في النص والواقع الإسلاميين في مقال طويل لي بعنوا ن (الإسلام والعدالة) في كتاب (الإسلام وقضايا العصر)، وقد قدمت للاستبداد بتعريفه أنه نفي للآخر المقابل. أريد القول هنا أن جميع النتاجات الفكرية الإنسانية والصراعات التاريخية جاءت كرد فعل مقاوم ومعارض لهذه الاستبدادات الثلاثة، وكذلك كان الأنبياء والشرائع السماوية.

لو بدأت بالاستبداد العالمي والذي هو نفي دولة لأخرى والعمل على السيطرة عليها لأسباب جوهرها اقتصادي وإن حاولت التستر بأسباب عصبوية أو ايديولوجية (راجع مقالي: القطبية الدولية وسوريا الوظيفية على موقع سيريانيوز)، فلقد أنكرتها الشرائع التي كان أساسها التعارف بين الشعوب والأعراق، وليس الغلبة والسيطرة كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) والخطاب القرآني هنا للناس، كل الناس، وليس لفئة دون أخرى أو لمؤمن دون كافر، وكذلك ختم بذلك الرسول محمد عليه الصلاة والسلام رسالته في حجة الوداع (يَا أَيُّها النَّاسُ: أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَباكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، ولا أَسْوَدَ على أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى)، لذلك كانت المقاومات الوطنية للاستقلال عن استبداد واحتلال دول أخرى مشروعة في

المواثيق الإنسانية، كما نصت المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة (ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة).

أما الاستبداد الفردي فله أصناف عدة، كنفي الرجل للآخر المرأة، ونفي الغني للآخر الفقير، ونفي الرأي للرأي الآخر. لقد خاضت المرأة صراعات عدة للتحرر من نفي الرجل لها، وحاولت جاهدة أن تثبت أنها أكثر من مُلْكِيَّةٍ له أو وظيفة محددة أوجدها لها، وأنها تملك القدرة والقوة التي نفاها الرجل عنها إن هي أعطيت الفرصة لذلك، ولاسيما في عصرنا الحالي حيث ارتفع مستوى التعليم وحلت التكنولوجيا المتفوقة مكان القوة الفيزيولوجية للرجل، حتى أن كثيراً من النساء تفوقوا في رياضات تحتاج لمهارات بدنية عالية كانت حكراً على الرجال، ويكفي القول أن امتلاك المرأة لقمة القرار السياسي في كثير من البلدان جعلتها تثبت قدرتها على الندية مع الرجل وجعله يعترف لها بالأمر عليه، فبعيداً عن نساء كانت أصحاب القرار السياسي الأول في دول غربية عظمى علمياً وعددياً كمرغريت تاتشر(70 مليون نسمة) وأنجيلا ميركل (85 مليون نسمة) وهيلاري كلينتون (350 مليون نسمة)، فإننا نجد نساء في دول إسلامية كبناظير بوتو رئيسة وزراء الباكستان لمرتين (250 مليون نسمة)، وخالدة ضياء الرحمن و شيخة حسنة في بنغلادش (175 مليون نسمة)، و ميجاواتي سوكارنو رئيسة أندونيسيا (285 مليون نسمة). إن الاعتراف للمرأة بقدرتها على قيادة أعلى قرار سياسي جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) ولهذه المرأة كان يدين ذوو البأس والقوة (قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)، ويكفي القول أن المرأة هي من تحمل المجتمع زمن الحروب والثورات، ولنا في الثورة السورية ل 14 عاماً مثالاً، كيف أن المرأة السورية أثبتت أنها حملت مسؤولياتها كاملة في غياب الرجل أو مشاركة فاعلة معه ولاسيما من الناحية المعاشية، والكثير من النساء قضوا في هذه الثورة، أما الأمهات فمازالوا يعضون على جروحهن فوراء كل شهيد أو مغيب أم،

فكيف يتم نفي هذه المرأة بحجة وضعها أو إعادتها للمكان الصحيح الذي اختاره الرجل لها؟!.

في نفي الغني للفقير فقد كان الموقف واضحاً (ما أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ)، والرسول هنا يعني الدولة في المفهوم الحديث وماتأخذه من ضرائب، وهي الضامنة لحقوق الفقراء ألا يمسها وينفيها الأغنياء، وكذلك كانت الوصية (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ) وكذلك الحق في الأموال (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ). إن النتاج الفكري الإنساني باتجاه نظريات (اشتراكية) الفقير مع الغني لايعد ولايحصى، وبعضها أخذ منحى متطرفاً كسياسات التأميم مثلاً. إن القضاء على الفقر هدف أساس من ميثاق الأمم المتحدة وهو الأول من حيث الترتيب من أصل 17 هدفاً في أجندة الاستدامة لديها للعام 2030.

في نفي الرأي الآخر، فإن الله تعالى نفاه على نفسه فكيف لايحرمه على الآخرين، ففي حواره مع سيدنا ابراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فالله صاحب القوة والنفاذ، سمح لابراهيم بالسؤال وسمح له بالشك الخجول، والله قدم الدليل ولم يعنف ابراهيم أو يزجره على تساؤله. إن ذلك رسالة واضحة على حرمة استبداد الرأي الآخر حتى وإن كنت تملك القوة والجبروت. إن أول استبداد للرأي هو استبداد المنزل من خلال استبداد بعض الآباء لرأي الأبناء وإلزامهم على اتباع أفكارهم (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)، ورغم تهديد الأب لسيدنا ابراهيم باستخدام العنف فإن رسالة ابراهيم أن يبقى الأبناء رفقاء بالآباء (قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)، وكذلك (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا). وخارج المنزل فقد كفل الله حرية الرأي كثمرة طبيعية لفطرة الاختلاف التي فَطَرَ الله عليها الناس (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ

النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) ورسائل عدم الإكراه في الدين (الرأي) لاحصر لها في القرآن الكريم (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) وكذلك (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) و غير ذلك (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

في الاستبداد على مستوى الأمة (الوطن) وفيه نفي الحاكم أو النظام للآخر الشعب ضمن حدود وطن معين (راجع مقالي على زمان الوصل: الايديولوجيات الأممية وقتل الوطنية)، فقد تحدثت عنه في مقال سابق على زمان الوصل بعنوان (فزعات العصبيات الفرعونية)، وقد تناولته الشرائع تحت مسمى النظام الفرعوني الذي يمثل تحالفاً بين الفرعون صاحب السطوة العسكرية، ورجلي الدين والمال الفاسدين. وقد خلصت في مقالاتي السابقة كيف أن الاستبداد الفرعوني هو أخطر الاستبدادات، لأنه بالضرورة سيؤدي إلى الاستبدادين الأول (على مستوى الفرد) والثالث (العالمي)، ففي النظام الفرعوني يعيش الإنسان منفياً في الداخل ومن الخارج معاً، لذلك ليس غريباً أن يُذْكَرَ فرعون في القرآن 74 مرة دلالة على خطورة هذا النوع من الاستبداد، استبداد الوطن.

بقي القول أن جميع من حارب وعارض هذه الاستبدادات (ولاسيما الاستبداد الوطني منها) هم أقلية، فالأكثرية (ولاأقصد المفهوم الطائفي بل أكثرية عموم الشعب على اختلاف طوائفهم وأعراقهم وعصبياتهم) في دول الاستبداد تَصْطَفُ وراء المستبد خوفاً أو لمصالح معينة تخشى عليها إن ذهب هذا المستبد (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ)، وكذلك كان عدد أتباع المسيح عليه السلام اثنا عشر حوارياً فقط، أما أصحاب الكهف فلم يتجاوزوا السبعة أفراد (سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم)، وفي حال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فقد بلغ من هاجر من مكة إلى المدينة حوالي 80 رجلاً بعد 13 سنة في مكة وهو يدعو للتوحيد ضد استبداد الرأي القرشي الأموي، بل إن إجمالي عدد المقاتلين الذي اجتمع للرسول محمد في

معركة بدر أقل بعشر مرات من جيش قريش (إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا).

لقد قاست هذه الأقلية في مقاومة الاستبدادات من جميع صنوف التعذيب الجسدي والمعنوي اللفظي، فقد اجتمعت الأكثرية على حرق سيدنا ابراهيم فنجاه الله (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)، وكذلك اجتمعت الأكثرية الفرعونية على قتل سيدنا موسى فنجاه الله (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)، وكذلك الأمر في صَلْبِ المسيح (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)، وقد تَبِعَتْ الأكثريةُ القرشيةَ الأمويةَ لقتل سيدنا محمد في هجرته للمدينة (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

لقد كان الأنبياء هم أول قادة معارضة للاستبدادات الثلاث، فحازت معارضتهم قدسية الشعوب، جميع الشعوب بلا استثناء، في مقاومتها لإلغاء نفي الإنسان بواسطة هذه الاستبدادات، فطوبى لهؤلاء الأنبياء المعارضون ولكل أقلية بعدهم صبرت أو قضت وهي تؤمن أنها تعارض مرحلة لابد زائلة، مرحلة الاستبداد.